فترى الهارب يسير من النافذة إلى ممر ممهد فيصل إلى الشجرة الممدة خاصة للهرب — حتى يصل إلى الأرض سالماً غانماً . وهل يليق بفاطمة التي تفر من النافذة حين يمنعها عمها عن الخروج ، لتلاقي حبيبها بثيابها الحريرية المكوية — هل يليق بهذه الفتاة الناعمة أن يمسها أذى أو يذهب صقل المكواة عن ثيابها ، من القفز على الجدران والسقوط على الأشجار — ! لا يليق غير ذلك لأن المخرج يريد ذلك !

وفي أي مكان من بلاد الله تقام حفلة يبحث فيها فتى عن فتاته ، فيظل يشتبه في عدد من الفتيات ، يتوسم كلا منهن ويقبلها وهي ساكتة تبتسم ، فيعرف من طعم القبلة أن « المشتبه فيها » ليست فتاته ، وإنما هي تشبهها فقط — ولو أن « المدوى » الذي يدعوه الناس للبحث عما يضيع منهم ، جرى في عمله على ذلك النمط الذي جرى عليه بطل الفلم في البحث عن فتاته ، لما أمل دوام البحث عن الضائعات —

عباس خضر

الوزراء العباسيون

تأليف الأستاذ محمد أحمد برانق

بقلم الأستاذ محمود رزق سليم

تحتاج الدول إلى رجال ، من أفذاذ أبنائها ، ليساوروا ولي الأمر فيها ، على الاضطلاع بمسئولياتها ، والقيام بأعباء الحكم فيها ، وتنفيذ مشروعاتها الإصلاحية ، والسهر على حياطتها ، والعمل على الترفيه عنها ، وإشاعة الأمن والعدل فيها ، ورعاية الدولة ، وتثبيت أركانها ، وتدعيم بنيانها . ويختارون — عادة — ممن حصفت عقولهم ، وصفت أذهانهم ، وبلغوا من الثقافة الواسعة حداً ممتازاً ، وأوتوا من الرأي صائبه ، ومن النظر ثاقبه ، ومن الحيلة نافذها ، ومن الدهاء أرسمه — هذه مؤهلاتهم الأولى — وإن اشترطت مؤهلات ثانية في العصر الحديث — التي ترشحهم لأسمى منصب في بلادهم ، وهو معونة السلطان على رعاية ملكه وشعبه .

ومن هؤلاء طبقة الوزراء . عرفتها الدول الإسلامية ، منذ بنى بنو العباس ملكهم المجيد ودولتهم العتيدة . وقد كان الخليفة حينذاك هو الدولة . وكثيراً ما كان يلقي بأمور دولته إلى وزيره . ومن هنا كان الوزير — في الحق — هو الدولة ، وإن كان المفروض أنه يسير في تصرفاته وفق مشيئة أميره . ومن هنا أيضاً كانت سيرة الوزير جزءاً هاماً من تاريخ عصره ، بل ربما كان لعمل الوزير أثر فيما يلي عصره من العصور .

لهذا ، كانت دراسة حياة وزراء دولة ، أمراً حيوياً ضرورياً لفهم حياتها واتجاهاتها وتصرفاتها . وتاريخهم من أبرز أجزاء تاريخ دولتهم . وهو يلقي أضواء وهاجة على حوادثها ، ويكشف الخبيء من أحوالها ، والمستتر المكنون من وقائعها . وذلك لمكانة الوزير من صاحب السلطان .

ومنصب الوزارة — عادة — من المناصب التي إليها تتوثب الآمال ، ومن حولها تتطرع الرجال . يسعون للوصول إليها ، ويجاهدون لاحتيازها . ولهذا تكثر حولها الدسائس والمؤامرات ، وتنشط الشباك والأحابيل . وهنا تتكشف الأخلاق والنفوس والنيات ، وتشتد المناصرات . ويتألف من هذا كله ، قصص من قصص الحياة ، ممتعة ، فيها كثير من العظات والعبر .

ونقرأ كثيراً من أخبار وزراء الدول الإسلامية ، في كتب التاريخ العام ، وفي كتب التراجم وكتب الأدب العربي ، وهي كثيرة واسعة ، غير أنها على رحابتها وامتداد آفاقها ، مبعثرة متفرقة ، تحتاج إلى مستوعب يستوعبها ومؤلف يجمع شتاتها ، وملائم يلم شعثها ، ومنشيء يسبغ على عرضها ثوباً جديداً من أساليب الإنشاء ، ويضفي عليها من جميل رأيه ، وحصيف نظرته ، ما يوضح للقارىء خفي الأمور فيها ، ويغامض الحوادث من بينها .

وقد فطن صديقي وزميلي الأستاذ النابه « محمد أحمد برانق » إلى ذلك كله ، فوجه عنايته محمودة إلى الدولة العباسية ، وهي الدولة الجامعة بحوادثها ، الآهلة بعظيم الأمور . وهي أولى الدول الإسلامية التي حملت « الوزارة » منصباً من أبرز مناصبها . حتى كاد الوزير في سفيها أن يكون المهيمن على أقدارها ، والواجه الفرد إلى مسالكها . — فطن صديقي إلى ذلك ، فاتخذ سير وزرائها وسيلة إلى دراسة تاريخها ، وإلى دراسة هذا التاريخ في أعلى مكامنه وأعماق جهاته . وعني بخاصة بعلاقات الوزراء بالخلفاء وقصورهم . وكشف الغطاء عن كثير مما يحالك في الخفاء ، بعيداً عن الدهماء . فكان الأستاذ في هذه الدراسة موفقاً ورشيداً .

وقد أصدر الأستاذ من كتابه الكبير «الوزراء العباسيون» الجزء الأول . وقد صدره بمقدمة حافلة واسعة المدى رحبة الأفق طاف فيها طوفة كبرى بالأمة العربية في جاهليتها ، وأثبت كيانها السياسي والاقتصادي . ونفى عني من يفرضونها أمة مغلقة الحدود ضئيلة الصلات بمن حولها من الأمم ، تافهة النظم ، محرومة من كل نشاط سياسي أو اقتصادي .

وقد دال على ذلك بأدلة كثيرة قاطعة ، قذف بها في وجوه بعض المستشرقين ومن لف لفهم من أدباء الشرق ، ممن يرمون العرب بالجهل والتفكك ونحو ذلك ، في عصرهم الجاهلي .

وتحدث عن المملكة العربية ونظمها في عهد النبوة وما بعدها حتى جاءت الدولة العباسية ، فاتخذ خلفاؤها لأنفسهم وزراء يعينونهم في شئون دولتهم . وقد شرح المؤلف ، كيف قامت الدولة العباسية ، وركز حديثه بصفة خاصة في ثلاثة رجال من الأعاجم ، وهبوا لها الرأي والنفس ، حتى أقاموا عمودها ونشروا بنودها ، وهم أبو مسلم الخراساني ، وأبو سلمة الخلال ، وخالد ابن برمك . وقص قصة كل رجل منهم وما لابس حياته من حوادث وأهوال ، مشيراً إلى موقف كل خليفة من وزيره ، ومن رجاله ، وأدى إلى ذلك الموقف من حوادث ، وما أدى إليه هذا الموقف من نتائج .

وعلى نمط من هذا ، درس حياة عدد من وزراء الدولة العباسية ، منهم : أبو أيوب الموريانى والربيع بن يونس وأبو عبيدة ومعاوية ابن عبد الله ، ويعقوب بن داود ، والفيض بن صالح ، وإبراهيم ابن ذكوان الحرانى .

ونود لو عنى الأستاذ في أبحاثه بأن يزيدنا علماً بمنشأ كل رجل من أعلامه ، وأن يقدم لنا شيئاً عن سني حياته الأولى ، مما يكون له أثر — بلا ريب — في تكوينه وتوجيهه . نقول ذلك لعلمنا بعض التراجم منه .

على أني لحظت أن كثيراً من دراسات هذا السفر القيم ، تركزت في حوادث شخصية فردية . وأعتقد أن الأستاذ الفاضل بجوار ذلك ، لو عنى بالحوادث العامة وصلتها بالوزير وصلة الوزير بها ، لكان حديثه أروع وأمتع .

ثم إني أحسب أن الوزراء في الدول العربية الأولى إنما اختيروا لفرط أدبهم وسلامة منطقهم وروائع لفظهم وجامع حكمهم . وهذه ناحية لم تتضح وضوحها الواجب في كتاب ككتاب صديقنا الأستاذ برانق ، وهو من تعرفه علماً وأدباً . وإني لواثق كل الثقة أنه سيعير هذه الناحية عناية في أجزاء الكتاب التالية .

وأخيراً ، كنت أحب أن يعقد الأستاذ نبذة بين نبذ تصويره الطويل ، يتحدث فيها عن منصب « الوزارة » من الناحية التاريخية ، ومن اختصاصات الوزير ، والفارق بينه وبين غيره كالحاجب ، ومبلغ تقلب هذه الاختصاصات في الدول الإسلامية ودرجة سمو منصب الوزير ، أو سفته في كل منها . إلى غير ذلك مما يتصل بهذا المنصب الهام . ولعل الأستاذ أن يلم بهذا الموضوع في مناسبة من مناسباته بحوثه القادمة .

وبعد فقد سد هذا الكتاب فراغاً ملحوظاً في المكتبة العربية والإسلامية . من أجل ذلك نرجي لمؤلفه الفاضل الثناء الجم والشكر المتصل وجزاه الله عن العربية والإسلام خير الجزاء

(حلوان)

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

وحي الرسالة
يظهر قريباً